

التيبكون. †

رئيس الأساقفة يوحنا مكسيموفيتش نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

إن الخدم والطقوس الإلهية للكنيسة الأرثوذكسية، التي أساسها تيبكون واحد وتحافظ على القواسم المشتركة في كل ما هو مهم جوهرياً، تختلف الواحدة عن الأخرى اختلافاً كبيراً في الممارسة. ليست عادات البلدان المختلفة والكنائس المحلية هي التي تختلف وحسب، ولكن حتى في حدود منطقة واحدة، وأحياناً حتى في مدينة واحدة، تختلف العادات بشكل كبير بين الكنائس الواقعة بالقرب من بعضها البعض. تكرر السؤال أكثر من مرة في ما يتعلق بإدخال تيبكون واحد مختصر مشترك يكون إلزامياً لجميع الكنائس. ومع ذلك، فإن ما قد يكون قراراً نظرياً فقط قد يكون في الواقع مستحيل التنفيذ بل وقد تكون المحاولة ضارة. يأتي الاختلاف في تنفيذ تيبكون الكنيسة من قوة العادات التي ترسخت. أحياناً، يكون لهذه العادات معانٍ حساسة للغاية، ولكن في بعض الأحيان تكون المعاني غير منطقية مُطلقاً؛ وبالتالي، فإن ما يبقيها هو حماسة وعزيمة الذين يقومون بها.

لا شك في أنه يجب أن نأخذ بعين الاعتبار ما تم قبوله كعرف مقدس. أي ما تم قبوله منذ العصور القديمة على أنه قد نشأ ودخل، ليس في وعي الكهنة الذين ينفذونه حسب، بل والعلمانيين أيضاً. ومع ذلك، يجب أن نعطي وزناً أقل بكثير لما هو مجرد ممارسة شائعة؛ أي لما هو مجرد عادة عند الذين يقومون بها من دون معنى داخلي ومن دون أن تدخل في وعي العلمانيين. يجب أن نتمسك بالأولى طالما أنها مفيدة لنشاطنا ولا تتعارض مع تيبكون الكنيسة. بالنسبة إلى الممارسات الأخيرة، يمكن وضع قاعدة عامة: كلما كانت أقرب لتيبكون الكنيسة، كلما كانت أفضل.

ليس تيبكون كنيستنا مجموعة من القواعد الميتة ولا هو ثمرة بعض الأعمال المكتبية المجردة، بل هو مطبوع على التجربة الروحية للنسك القديسين الذين توصلوا إلى فهم أعماق الروح البشرية وقوانين الحياة الروحية بشكل كامل. لقد اختبر الآباء القديسون بأنفسهم المعركة مع ضعفات النفس والجسد، كما مع وسائل شفائها. لقد توصلوا إلى أن يفهموا جيداً طريق الجهاد الصلاتي وقوة الصلاة. إن تيبكون الكنيسة هو دليل للتدرّب على الصلاة وتعلّمها، وبقدر ما يزداد الالتزام به، تزيد الفائدة المستمدة منه. في حال عدم القدرة على تطبيق كل ما هو منصوص عليه في التيبكون، يجب أن نطبّق كل ما في وسعنا، محافظين على هيكله العام ومحتواه الرئيسي.

من الضروري، من ناحية، تطبيق الخصائص الرئيسية لخدمة معينة دون تغيير تكوينها وما يحافظ على هويتها منفصلة عن غيرها. من ناحية أخرى، يجب أن نحاول قدر المستطاع أن نحفظ تلك الأجزاء من الخدمة التي تتغير بحسب اليوم وتعبّر عن معنى وسبب الاحتفال بحدث ذلك اليوم. تجمع الخدم الإلهية في ذاتها الصلاة

التي يرفعها المؤمنون إلى الله، وتقبَّل نعمة الله التي في الشركة معه، وتعليم المؤمنين، من خلال ما يُقرأ في الخدم الإلهية والترانيم والوعظ والإرشاد في الحياة المسيحية.

تحوي الخدم الإلهية في تكوينها ملء تعاليم الكنيسة العقائدية، وثمرت الطريق إلى الخلاص. إنها تقدم ثروة روحية لا تقدر بثمن. بقدر ما تُطبَّق بشكل كامل ودقيق، تزداد الفائدة التي يجنيها المشاركون فيها. إن من يؤدونها بلا مبالاة ويقصرونها بسبب كسلهم يسلبون قطيعهم، ويحرمونهم من خبزهم اليومي، ويسرقون منهم أتمن كنز. أما تقصير الخدم الناجم عن نقص القوة فيجب أن يتم بحكمة ويؤدى بحذر حتى لا يمس ما لا ينبغي العبث به.

على وجه التحديد، يجب قراءة المزمور ١٠٣ بكامله في صلاة الغروب؛ إذا زُتِل، فيسمح بترتيل بضع آيات فقط، ولكن بجلالة. يُفضَّل أن تُرتَّل آيات المزامير ١٤٠ و ١٤١ و ١٢٩ و ١١٦، التي تبدأ عند "يا ربي إليك صرخت"، بالكامل وحتى كل القطع التي تتبعها.

في الأيام المحددة، من الضروري قراءة القراءات من العهد القديم وخدمة الليتين. يجب أن تُقام السحرية في الصباح. إن إقامة خدمة السحرية في المساء، باستثناء حالة سهرانية طول الليل، هو أمر غير مسموح، إذ بذلك تُلغى بشكل أساسي الخدمة الصباحية التي هي ضرورية جداً للمؤمنين؛ حتى حضور لوقت قصير إلى الكنيسة في الصباح له تأثير نافع على الروح، إذ يقَدَس ويوجّه اليوم بطوله. المزامير الستة يجب ألا تُختصر. أيضاً، من الضروري قراءة قطع المديح بكاملها. لا ينبغي أن تحلَّ القراءة محل الترتيل إلا في حال عدم وجود أي شخص قادر على الترتيل، لأن تأثير الترتيل أقوى بكثير من القراءة، ونادراً ما تكون القراءة قادرة على الحلول مكانه. لا تجرؤوا على إهمال الثيوطوكيات بعد الطروباريات وغيرها من الترانيم، لأن فيها يُقدَّم أساس إيماننا - التعليم عن تجسّد ابن الله والتدبير الإلهي.

يجب إقامة خدمة الساعات تماماً دون إغفال، إذ هي قصيرة جداً أصلاً. يجب قراءة المزامير الثلاثة لكل ساعة، بالإضافة إلى الطروبارية والصلوات الأخرى المخصصة لها. في نهاية كل ساعة، يجب إبلاء اهتمام خاص للصلاة، والتي تعبر عن معنى الحدث المقدس الذي يُقام في تلك الساعة.

إذا استحال إقامة القديس يومياً، فعلى الأقل يجب أن يُقام في كل أيام الآحاد وأعياد الكنيسة، دون مراعاة عدد المؤمنين القادرين على حضور الخدمة. القديس الإلهي هو الذبيحة غير الدموية للعالم أجمع ومن واجب الكاهن أن يقدمها عند الحاجة. يُحظَر تخطي أي جزء من كتاب الخدمة. من الضروري أيضاً ترتيل الترانيم المحددة للقديس، بما فيها المزامير ١٠٣ و ١٤٥ و ٣٣؛ إذا تم تقصير المزمور ١٠٣ بسبب طوله (على الرغم من أنه من الأفضل عدم القيام بذلك)، فيجب في أي حال من الأحوال ترتيل المزمور ١٤٥ من البداية إلى النهاية، باستثناء الأيام التي فيها يُستبدلان كلاهما بالأنثيفونات. لا يُستبدل المزمور ٣٣ إلا في أسبوع التجديدات بترتيل "المسيح قام". أما باقي السنة، فيقرأ أو يُرتَّل لتأثيره الحَسَن، ولا يوجد مبرر لحذفه. يجب أن تُرتَّل تلك الطروباريات المُعيّنة لكل قديس وبترتيبها الصحيح، لأنها الجزء المتعلق بالأعياد من الليتورجيا.

يشير تيبكون الكنيسة أيضاً إلى الحفاظ على ترتيب قراءات الرسالة والإنجيل بدقة. إذا تم الالتزام بهذا، فطوال العام، في تلك الكنائس التي تقام فيها الصلوات يومياً، يُقرأ الإنجيل والرسائل بالكامل. يتطلب هذا الترتيب أن تُقرأ القراءة الدورية بالضرورة؛ وتُستبدل بقراءات احتفالية في أيام الأعياد الكبيرة فقط، دون أن تُحذف القراءة الدورية، إذ تُقرأ في اليوم السابق مع القراءات العادية: في أيام الأعياد ذات الرتبة المتوسطة، تُقرأ القراءات الدورية والاحتفالية. إن الاكتفاء بقراءة القطع الاحتفالية فقط مع حذف القراءات الاعتيادية [اليومية] يُسميه التيبكون "لاعقلانية"، إذ عندما يحدث، يُنتهك مجمل معنى تقسيم القراءات بالترتيب المحدد، ومن يقومون بذلك يُظهرون عدم فهمهم لمعنى هذه التقسيمات.

أما بقية الأسرار المقدسة، فكما في كل ترتيب الخدم في كتاب الإفخولوجي، يجب أيضاً عدم تقصيرها إلا لحاجة ماسة، وحتى عند تقصيرها يجب الالتزام بكل ما هو أساسي وبترتيب الخدمة، متذكّرين مسؤولية الكاهن أمام الله عن الضرر اللاحق بنفوس الرعية بسبب قلة اهتمامه. يجب على كل كاهن، أثناء إقامة الخدمة الإلهية، أن يتممها بدقة أكبر وبأداء أفضل، حتى إذا ما جلب المنفعة الروحية للآخرين، يُشبّه في يوم الدينونة بالعبد الذي قدّم الوزنات العشر ويسمع: أحسنت ايها العبد الصالح والأمين كنت اميناً في القليل.

† ناقش مجمع الكنيسة الأرثوذكسية الروسية في خارج روسيا (ROCOR) مسألة التوحيد في الخدم الكنسية في عام ١٩٥١، وكانت هذه المساهمة لرئيس الأساقفة القديس يوحنا ماكسيموفيتش.

Source: Selected Sermons of Saint John of Shanghai and San Francisco. Book 3. Holy Dormition Sisterhood. 2004.